

تأويل الخطاب القرآني من منظور الإشراقات الصوفية
- الشيخ محيي الدين بن عربي أنموذجا -

The interpretation of the Qur'anic Discourse from the Sufi Brightness Perspective:
Sheikh Mohieddin bin Arabi, a model

الأستاذ الدكتور لخضر قدور قطاوي
جامعة حسينية بن بوعللي الشلف - الجزائر

الملخص:

يعدّ الشيخ محيي الدين بن عربي (ت 638 هـ) أحد أقطاب الصوفية الذين أولوا آي القرآن الكريم وفق الإشراقات الروحية الصوفية، والبحث الذي بين أيدينا يتناول ثنائية الخطاب القرآني في تواصلية روحانية وصوفية القطب ابن العربي في تعامله مع النصّ القرآني، ومن ثمّة فهناك إشكال يطرح في هذا السبيل وهو إلى أيّ مدى وظّف هذا التأويل ليستجيب إلى متطلبات ومتطلبات الروح الصوفية؟ وما هي الآليات التي وظّفها ابن عربي من علوم القوم وغيرهم في تأويل الخطاب القرآني؟ وهل تمّ التسليم له بما جاء به؟ وللإجابة عن هذا الإشكال فإنّه لا مناص لنا من قبضة كتب ابن عربي التي ستشدنا إليها شداً وأولها تفسير ابن عربي، وفصوص الحكم، وذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق، ورسائل ابن عربي، وغيرها من مؤلفات الصوفية التي سنشدّ بها أزرنا في فتح مشكل المصطلحات الصوفية التي يستخدمها هذا العالم في تفسيره الصوفي للقرآن الكريم وتوجيه المعاني الصوفية وجهتها العلمية الموضوعية المنوطة بها.

الكلمات المفتاحية: ابن عربي؛ المصطلحات الصوفية؛ التأويل القرآني؛ الخطاب القرآني

Abstract

Sheikh Mohi al-Din ibn Arabi (638 H) is one of the Sufis magnates who interpreted the Qur'an in accordance with the sufi spiritual brightness. This research paper deals with the duality of the Qur'anic discourse in the spiritual and mystical communication of ibn al-Arabi in his dealings with the Qur'anic text. It also investigates the extent to which his interpretation was used to respond to the aspirations and requirements of the Sufi Spirit, the mechanisms Ibn Arabi used for the interpretation of the Qur'anic discourse, and whether his work was recognized or not. We have to make recourse to the books of Ibn Arabi like 'the interpretation of Ibn Arabi', 'the Poems of the Ruling', 'the Ammunition of the al-Arelations', 'Explaining the Translation of the Son of Anaq', and the messages of Ibn Arabi, and other Sufi writings to tackle the issue of the terminology used in the sufi interpretation of the Qur'an, put Sufi meanings in their objective scientific orientation.

Keywords: Ibn Arabi, Sufi terminology, Qur'anic interpretation, Qur'anic discourse.

إذا كان تحليل الخطاب الصوفي يرتكز على الوقوف على فك شفرات دلالات الرموز والمصطلحية الصوفية فإنه من الأهم أن نعرف آلية هذا الخطاب من خلال الوقوف على تأويلاتهم التي كونت خطابهم الصوفي المتميز بخصائصه الإشرافية. وبالأخص مع نص القرآن الكريم.

مفهوم التأويل: لا يمكننا . من خلال قانون المصطلح . الوقوف على مفهوميته ما لم نضع في نصب أعيننا الجذر المدخلي لمادته اللغوية التي اشتق منها، وينضاف إليها الضمائم التي تحيط بهذا المصطلح في الاستعمال العربي. والتأويل عند الجوهري: «تفسير ما يؤول إليه الشيء. وقد أولته وتأولته بمعنى». ¹ "واستشهد له بقول الأعشى ²:"

عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ تَأُولُ حُبَّهَا تَأُولُ رَبْعِي السَّقَابِ فَأَصْحَبَا

وجاء بشرح أبي عبيدة لمعنى (تأول حُبَّهَا)، «أي: تفسيره ومرجعه، أي: إنه كان صغيراً في قلبه، فلم يزل ينبت حتى أصحب فصار قديماً كهذا السَّقَابِ الصغير، لم يزل يشبُّ حتى صار كبيراً مثل أمه، وصار له ابن يتبعه». ³ فنستنتج من هذا أن معنى التأويل هو الإرجاع والتصيير والتوجيه.

فلو نظرنا إلى النص القرآني وما ورد فيه من ذكر لهذا المصطلح لانتهى بنا المطاف إلى معنى الإحاطة بالعلم. ⁴ ومن ألف في التأويل على غير طريقة أهل الحقيقة كابن الزبير الغرناطي فإنما كان قصده فيه معنى التوجيه يقول: «وإن من مغفالات مصنفي أئمتنا . رضي الله عنهم . في خدمة علومه، وتدبر منظومه الجليل ومفهومه، وتوجيه ما تكرر من آياته لفظاً أو مختلف بتقدم أو تأخير وبعض زيادة في التعبير». ⁵ ومن أمثلة التأويل الصوفي لابن عربي لآي القرآن الكريم قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ، وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ } النساء 43 وندرسه وفق ما يأتي:

تأويل ما له صلة بالإيمان والعبادات

فالإيمان عنده ليس مطلق الإيمان المعروف عند سائر الناس بل الإيمان العلمي، كما أن الصلاة عنده تؤول بمقام الحضور والمناجاة مع الله، ولذا فقد أول السكر، بنوم الغفلة أو خمور الهوى ومحبة الدنيا، بمعنى لا تقربوا الحضور الإلهي متلبسين بما ذكر. ⁶

وأما الاغتسال: الذي هو طهارة البدن برفع الحدث الأكبر بالماء المطلق قبل التلبس بفعل الصلاة عند الفقهاء، فابن عربي لا يقف عند هذا المفهوم، في خطاب القرآن للمكلف بأمر الاغتسال في الخطاب القرآني من رفع الحدث الأكبر بالمطلق أو بالصعيد في حال فقد الماء أو الضرورة بل أول خطاب النص القرآني (حَتَّى تَغْتَسِلُوا) بقوله: «أي: تتطهروا من تلك الهيئة الحاصلة من الانجذاب إلى الجهة السفلية بماء التوبة والاستغفار وعبود التنصل والاعتذار». ⁷

فالشيخ محيي الدين بن العربي ينظر لأحكام الشريعة نظرة أهل الحقيقة الذين يرون لها معنى ظاهرياً والثاني باطنياً وهو الغاية المطلوب معرفتها والتشبث بها. ويحمل المرض هنا لا على ظاهره بل مرض القلوب الذي يتسبب فيه العقائد الفاسدة والذرائل المهلكة. ⁸ والعجيب عنده تأويله السفر هنا بتيه الجهل والحيرة لطلب لدّة النفس ومادة الرّجس بالحرص. ⁹

توظيف المصطلحات الصوفية كآلية في التأويل

يستخدم ابن عربي مصطلحات صوفية لا تتداول إلا مفهومات أهل الحقيقة منها المقام من ذلك تأويله للجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب في قوله تعالى { وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } النساء 36

فلا تجد هنا في تفسيره للمذكورات في النصّ إلا وقد أولها ووجهها وجهة إشراقية ونحن نذكر هنا منها ما له صلة بالمقام كمصطلح صوفي يعبرون به عن السطح الذي يؤدي إليه السلم، وهو عندهم أشدّ رسوخا من الحال التي يمثل لها بالسُّلَم. ويقول محمد غازي عرابي: «فالفرق بين الحال والمقام أنّ الأول كسبي رهين بما لدى العبد من شوق إلى تحقيق رغبة المطلق فيه، أمّا المقام فوهبي ينزل رحمة من سماء الرّحموت إلى قلب العبد ليريه من الآيات المنقوشة في اللوح المحفوظ. فالمقام مرايا لكلّ منها آية تشرق، فإذا استوعبها قلب العارف طويت لتنقش بدلا منها آية أخرى». ¹⁰ "وسرّ علم التأويل هو من هذا القبيل فهو من المكاشفات الرحموتية كما هو الحال مع سيدنا يوسف عليه السلام الذي علّمه سرّ تأويل الأحاديث". ¹¹ "ثمّ إنّ المقامات درجات. يترقى فيها المرید بترج روحاني عن طريق التجلي الإلهي لقلب العبد. والشيخ ابن عربي يستخدم مصطلح المقام لهذه الأصناف الثلاثة المذكورة آنفا فيقول: « {والجار ذي القربى} : الذي هو في مقام من مقامات السلوك قريب من مقامك، {والجار الجنب} الذي هو في مقامه بعيد من مقامك، {والصاحب بالجنب} والرفيق الذي هو في عين مقامكم ويرافقكم في سيركم، {وابن السبيل} أي: السالك في طريق الحقّ الدّاخل في الغربة عن مأوى النّفس الذي لم يصل إلى مقام من مقامات أهل الله». ¹² "تأويل إنزال المطر وما يتسبب فيه

وقد ورد تأويل المطر وما يتسبب فيه من نباتات وفواكه في قوله تعالى { وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كلّ شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج حبّا متراكبا ومن النّخل من طلعها قنوان دانية وجنّاتٍ من أعناب والزيتون والرّمان } ¹³ "

فأول ابن عربي نزول الماء من السماء بنزول ماء العلم من سماء الرّوح، وأمّا النبات فهو كل صنف من الأخلاق والفضائل، يقول (فأخرجنا) من النبات هيئة خضرة النفس وزينة حسنة جميلة وبهجة بالعلم والخلق، وأول النخل بنخل العقل، وجنّات العنب بالأحوال والأذواق وخصوصا أنواع الحبّة القلبية المسكر عصيرها وسلافها، والزيتون أوله للفكر عن طريق آلية الإضافة اللغوية، فسماه زيتون الفكر، وكذا فعل مع الرمان فصرفه عن الفاكهة المعروفة إلى رمان التوهّمات الصّادقة التي هي الهمم الشريفة والعزائم النفسية. ¹⁴ "

تأويل أسماء الأنبياء

يرى أبو العلا عفيفي أن ابن عربي لا يذكر نوحا أو إدريس أو غيرهما من الأنبياء على أنّها شخصيات تاريخية على النحو الذي نلفيها عند أصحاب القصص أو التفسير والأخبار والتاريخ، ولكن وإنما هي مثل وأدوات يوظفها لصالح مذهبه وإشراقاته الصوفية. ¹⁵ "

والحاصل أن ابن عربي كان واسع الخيال الصوفي فالكون عنده بأسره خيال، وكل ما يراه الإنسان في حياته الدنيا إنما هي رؤيا تحتاج إلى تأويل. "16" ولذا تجده ينشد:

إنما الكون خيال وهو حق في الحقيقة
والذي فهم هذا حاز أسرار الطريقة

إن الخطاب القرآني تحول عند ابن عربي إلى مادة السكر العلمي الذي جنح به إلى مسلك الإشارة والرمز لأنه كان من ذوي عشق النفوس الإلهية التي ذكرها ابن سينا بأنها تسعى إلى مرتبة الكمال بعشقها للنفوس المتألهة. "17" وقد بين هذه الحقيقة الشعراوية بقوله عن لغة العاشقين: واعلم أنّ من صفات المحبين أنهم يتكلمون بلسان المحبة، والعشق، والسكر، لا بلسان العلم والعقل. "18"

وقد نقل ابن عربي رأيه بوضوح في هذا العشق الإلهي في شعره فهو القائل "19":

أدينُ بدينِ الحبِّ أني توجَّهْتُ رَكائِبُهُ فَالْدِّينُ دِينِي وَإِيمَانِي

وبهذا نأتي على نهاية هذه الخلاصة في هذه العجالة التي لم تسمح لنا بإيفاء حق هذا العالم الصوفي المبحر في كنف العشق الإلهي حقه.

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة في البحث

القرآن الكريم

- 1- الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصّوفية، عبد الوهاب الشعراوي، تحقيق طه عبد الباقي سرور، والسيد محمد عيد الشافعي، دار المعارف، بيروت. لبنان، ط1، 2003م.
- 2- تفسير ابن عربي، للشيخ الأكبر العرف بالله العلامة محيي الدين بن عربي (ت 638هـ)، دار صادر، بيروت. لبنان، ط1/1422هـ. 2002م.
- 3- ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق، محيي الدين ابن عربي (ت 638هـ) علق عليه ووضع حواشيه: خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط1، 2000م.
- 4- رسالة العشق للشيخ الرئيس ابن سينا، تحقيق حسين الصديق و راوية جاموس، دار الفكر، دمشق، ط1، 2005م.
- 5- فصوص الحكم لابن عربي والتعليقات عليه، أبو العلا عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت. لبنان، ط2، 1980م.
- 6- مختار الصحاح تأليف محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، دار الكتاب العربي، 1401هـ. 1981م.
- 7- مفهوم التأويل في القرآن الكريم. دراسة مصطلحية. فريدة زمردة، مركز الدراسات القرآنية، المملكة المغربية، ط1، 2014م.
- 8- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه التشابه اللفظ من آي التنزيل للإمام أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي تحقيق سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، بيروت. لبنان، ط1/1403هـ. 1983م.
- 9- النصوص في مصطلحات التصوف، محمد غازي عراي، دار قتيبة، لبنان، بيروت، ط1، 1985م.

الهوامش:

¹ . الصحاح ج4 ص416 مادة أول

² . انظر الصحاح ج4 ص416 مادة أول

³ . الصحاح ج4 ص416 مادة أول

⁴ . انظر مفهوم التأويل في القرآن الكريم، دراسة مصطلحية لفريدة زمردة ص163

5. ملاك التأويل ج 1 ص 144 و 145
6. انظر تفسر ابن عربي ج 1 ص 121
7. المصدر السابق ج 1 ص 121
8. انظر المصدر السابق ج 1 ص 121
9. انظر المصدر السابق ج 1 ص 121
10. التصوف في مصطلحات التصوف ص 318
11. انظر المرجع السابق ص 318
12. تفسر ابن عربي ج 1 ص 119
13. الأنعام 99
14. انظر تفسر ابن عربي ج 1 ص 178
15. انظر فصوص الحكم والتعليقت عليه ص 46
16. فصوص الحكم ص 159
17. انظر رسالة العشاق ص 40
18. الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية ص 113
19. ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق ص 36